حديقة المقتطفات

رابندرانات تاجور

الفصل الثانى

الشاعر العالمى الماهر

تاجور الشاعر العالمي الملهم

—٢—

لمحمود المنجوري

[رابعاً]— التصوف : لم يكن تاجور رغم ما تجده في شعره من تصوف ورمز وهيام بالحقيقة المجردة والجمال المطلق ، لم يكن تاجور بالرجل الزاهد المتشائم الذي يرغب عن الحياة وما فيها من متع وجمال

« لن أكون نسكاً يا رفيقي ولتنعب بك الطيور كما تشاء
لن أكون نسكاً اذا هي لم تتارك هذا النسك راضية
لن أكون نسكاً اذا لم أرَ في ركن ورفيق يشاركني نسكي
هذا هو ما انتهيت اليه اخيراً . فلن أهجر داري ولن أترك مرتادي لاعتي الى عزلة الغابة ووحدتها ما لم تملأ الغابة ضحكات الامل السعيدة ويبهجها رداؤها الاخضر اذا حول عزلتي ، وليخفق في صمتها في نسكي لترداد الغابة سكوناً وصمتاً »

على ان التصوف في شعر تاجور هو عمل روحي وجهد نفسي ، هو معرفة الله وادراك الحق وشمول الروح واتساعها لمعاني الحياة كلها ، وتصوفه نتيجة تدبر ونظر في مذاهب الهند الصوفية المتطرفة ، هو تصوف في مطالب الروح ورغباتها والتماس من النفس لمعالجة مشكلاتها الروحية والاجتماعية من طريق اللين واليسر وادراك الحقيقة . ولقد اشترك هذا التصوف في تكوين شاعرية تاجور ، لأنهُ هيأ له « البصيرة الباطنة » فخلق من التصوف المتطرف تصوفاً شعرياً فيه جميع طرائق الفلسفة الهندية ثم سلك هذا التصوف في شعره ونظره الى الحياة كما سلكه في معيشته اليومية وحياته العامة . فهو من هذه الناحية شاعر الحياة الذي استطاع ان يجسم الشعر وان يجعلهُ دستوراً وان يخضع الحياة له فهو يعيش في معهده وفي بيته ضمن الحقائق الشعرية التي خرَّجها من الحياة ، ولهذا كان شعر تاجور حقيقة حية ملموسة وليس شأنه شأن علماء الاجتماع النظريين الذين يتكلمون عن المساواة والديمقراطية او يبشرون بالاشتراكية ومع هذا تراهم في حياتهم الخاصة أبعد الناس عما يدعون اليه . بل انهم لا يعرفون أدب العامة مع من دونهم من خدم إذ يعدونهم حيوانات لا تفهم ولا تستحق الحياة . وهم يخدعون الجماعة عندما يتماهلون معها ، مع انك تقرأ لهم رسالات في الدعوة الى الديمقراطية والمساواة والاشتراكية فتحسب ان هؤلاء هم رسل دعوتهم . هؤلاء الدعاة هم قوة كلامية لا تتحرك فيهم غير قوتهم الناطقة الباحثة ، وتتغلب عليهم غرائزهم وورائاتهم . وأما تاجور فقد وضع للشعر منهجاً خاصاً وجعل هذا الشعر دستوراً ثم عاش بمقتضاه

والبصيرة الباطنة هي احد مصادر شعره ، وهي حاسة تجود بها الحياة على الشاعر الملهم الذي يحب شخصيته ويجعلها مصدر معرفته لاحتوائها على الحقائق واتساعها لمعاني الحياة كلها . وفي الحق ان البصيرة الباطنة هي أم الحواس الخمس بل هي حاسة عليا تفوق البصر والسمع والشم واللمس والذوق ، لانها حاسة يدرك بها الشاعر الموهوب آثار الصور الباطنة من خلال الخير والكمال . وهي وسيلة لادراك المعاني السامية المتصلة بالروح وحاجة النفس كالحب وادراك الجمال والخير ومعرفة الحقيقة من طريق المعاني الباطنة التي تثير الالهام في الشاعر . والشاعر الذي تغلب عليه البصيرة الباطنة يكون حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة التي يدركها بحواسه الاخرى

والمعاني الباطنة لا يمكن ان يتخيلها الشاعر ، لأنها ليست متخيلة ولا محسوسة ، ولكنها تُلهم من طريق الاستمتاع بها كحقيقة كائنة ، والاستمتاع بهذه المعاني يفوق الاستمتاع الحسي بالاشياء التي ندركها بحواسنا

وتاجور شاعر موهوب أطلق لبصيرته الباطنة قوتها وحريتها فلكت عليه كيانه ، فأدرك ما لا يدرك بحواسه وكشف حجب الحقيقة ، فاستبانت له ظاهرة جلية واستمتع «بمحبة الله» استمتاعاً ملأ جوانب قلبه ، ثم أصبحت هذه المحبة مصدر كل معرفة وكل ادراك وكل إلهام

على ان نهاية المعرفة أمرٌ غير ميسور لبشري ، لهذا كان لشاعرنا حيرة مرجعة تضم معاني الشوق والبحث عن الضالة المجهولة « استكمالاً » للوضوح ، وبحثاً وراء نهاية المعرفة » هذه الحيرة هي مصدر عبقري لجلال شاعرية تاجور . ولكنها ليست حيرة التشكك ، بل هي حيرة اليقين الظامىء الى تمام المعرفة ، حيرة اليقين العارف الذي يجد نهاية المعرفة أمراً غير متاح ، فهو يضيف الشاعر المتلهف الى ادراك سر القدرة التي أبدعتنا . وانك لترى هذه اللهفة المتشوقة في شعره العميق . لهفة التطلع الى ادراك المعرفة ومتابعة البحث وراء الحقيقة كلما أدرك منها طرفاً ازداد شوقاً الى استكناه ذاتها ، انها لهفة تنتهي دائماً بالرضى والايمان والالم السمح :

كم أعطيتني كثيراً وكم أطلب المزيد
إني أسعى اليك لا لقطرة أطلب بها ضمأي
ولكني أسعى ظمأ لينبوع التدفق الدائم .
وإني لا ألمس طريقك لاقف دون بابك
ولكني أريد أن يحتويني ديوانك الاعلى
حيث أجلس مع رب البيت الكريم .
إني لا أتقدم بهبة الحب لتضعها الى قلبي
ولكني أشد الحبيب نفسه .
لقد شعرت بسرورك ان تخلقني غير محدود النهاية
بهذا هيكي الواهن تستغرق منه الحياة مرة تلو
أخرى لتبثها فيه مبتهجة نضرة:

أني مزمار دق من القلب تحته في ضوائك الظلال
والعذاب متنياً فيه أغاني أبدية الجمة
إن ظلي ليفقد أوضاعه ووعيه كما يغيض عليه من
حيرة عندما تلمسه بلمسك الأبدي ؛ انه ليتنفس
لكن تلك اللامعجانية الوالا يحدها المعقل
إن نعمك التي لا تحد لا تزال تتدفق
وستمر الدهور وستولي نعمك علي
ولكني ما زلت ظامئاً فيك وما زال في مكاني
فراغ ثلاثة . .

***

ويجد تاجور في ادراك الحقائق لذة وحرية وجمالاً ومتاعاً ، والحقيقة عنده رائعة جبارة معها تتقمص عليه وتستبد به ؛ حتى حقيقة الموت تخلق في نفسه صورة جبارة من صور الخلود والبقاء لأنها ولادة ثانية لعالم روحي جديد

على أن حقيقة الموت من الحياة لم يدركها ادراكاً فلسفياً أول الأمر ، وإنما عاناها في مستهل حياته يوم كان صبياً لاعباً ، يوم فقد مورد الحنان والعطف والبر ، يوم فقد أمه وليس أبلغ من قلم تاجور حين يحدثنا عن هذه الذكريات ، فلنترك تاجور إذ يتحدث

« كنت حين أدركت أني الوفاة قريب جداً ، وكان قد مضى عليه زمن وهي تعاني علة استحكمت عليها على أنها كانت لا تفارق غرفة نومها ، كانت تلازم الفراش فيه ، فكنا نراها دائماً صورة جبارة ألهم غيرت وعفى زمن على هذا حتى حملوها الى الخير في رحلة ثم عادوا بها الى مدفع هيرة هناك في الطريق الذاهب من منزلنا. وبينما نحن نهم في غرفة دخلت علينا خادمة المجوز في ساعة الليل تبكي وتقول : آه يا سيدي لقد لقيتم ذعر المنون كله ! فأسكتنا روح أخي الأكبر وأقعدتنا عن غرفتنا حتى لا نصاب بصدمة هذا النبأ الفجيع في ليلة قاسية . فجلست وأنا في غفوة بين السبات واليقظة بقاعة بعيدة عن غرفة الموت ، ولكن لا على ما أجري وعياً صحيحاً ، ثم تنفس الصبح فلم أع ما هو هذا الموت الذي سمعت خبره ، ولكني عندما خرجت الى الشرفة المكشوفة رأيت أبي جالساً في مقعده في هذا البيت الخاص كما كان عهدنا وديدنه كل يوم في تؤدة ، لم يكن عليه ضيم الموت الفجيع ، ولم أشعر أن هذه الجثة التي وجده الموت من فراش مخيف بين حياة وحياة

ولكن يد رأيته يحملون أبي وهي مزينة بالورد والرياحين ، في الطريق المنقطر بالشجر ، حتى في هذا الركب الرهيب وراء النعش حيث سمعه لا يذكرت قط أن أبي لن يرجع من هذا كما كان الى سريرها في البيت ، وشعرت بلا شعور بيده الدافئة على قلبي الصغير ، ولكني عندما رجعت الى البيت وتركت أبي وحده في مكانه الأخير ، ورفعت بصري في ظلام الليل الى الطريق الذاهب ، وجدت أني وحدي في مخدعه وبدأ ما لا يعني

على أن كلا من الشعر قد وهب الصورة على الرغم مني بقدير لا رجعة من هذه الذي ، والأفضل هم أقوى التعبير على وقع هذا المدرك هو شعوره لا من فقدان الأب ولا من حزنه فقط ولا من جزعه فقط بل من كل هذه وهكذا كان شعر الموت في حياتي ، ما تزال أشعر بهذا الشعر في أعماق الضمير ، الشعر الذي ما زال يتحول حتى الجثة كالجثة الفجيعة

على أن هذه الصورة مازالت تتردد في خيال تاجور من حين الى حين ، لقد فقد أمه ، فقد العطف والحنان الطبيعي غير المتكلف ، العطف الذي لا يشترى ولا يباع بثمن ، ما أبره

وأنقاه من عطف ! ولبث تاجور محروماً هذا المعين يتشوق اليه ويعده مرجعاً من مراجع الهامه وحنينه

وكان شاباً منكراً يوم بلغ الثالثة والعشرين من عمره وكان يدبر ضياع أبيه بين زوجه وولده ينعم بجمال الطبيعة ويستثير فيها هذه الرحمة وهذا الحنان الذي حُرِمهُ منذ فقد أمه . ولكن كم كان القضاء معجلاً يوم دهمه في عزلته فاختطف منه في أشهر زوجته التي يحبها وابنته التي يعزها وأصغر أبنائه الذي كان يرعى في صاحته الانس والنسيان

في الحق ان هذه الفترة القاسية من حياة تاجور هي التي طبعت قلبه بطابع الألم الدائم والتفكير الذي لا ينضب معينه وخلقت من شبابه للحكيم فلسفة استقرت في قلبه . ففهم حقاً معنى الحياة والموت . واني لأترك تاجور يتكلم عن نفسه أيضاً :

« وأما هذه الفجيعة فقد استقبلتها في مرارة وأسى متصل بالماضي الأليم ، إنها استذكرت مني على الشجن منذ نعمت في أبي فاتصل الحاضر الباكي بالماضي الحزين وأصبحت محاطاً بالآلام والاحزان من كل جانب ، حتى أني كنت قبل هذه الفجيعة اظن ان الاحداث لا تقطع أوصال الحياة ولا تمنع أسبابها من الاتصال بأفراحها وأتراحها ، فهي وحدة في ذاتها لا يدفعها دافع ولا يؤثر فيها مؤثر مهما يكن ويعظم — ولكني في الحق وجدت عند ما صايقني الموت في أعز من أحب اني غير قادر على امتلاك زمام الدواب فدلت وراحت بأيي الشؤون تلعب به وتعبث . رأيت ما حولي من أرض وماء وأشجار وشمس ونجوم وأقدر تتحرك كما هي لا يشغلها حال او تصور او موت ، هي باقية حقيقة لا تتغير في حين ان الانسان المخلوق الحي الذي كان يسيطر عليها والذي كان حقيقة بليغة لا يمكن ان يفكر وجوده قد صار الى زوال كالطيف الشاحب يختفي في لحظة . فأين العقل ان يوفق بين البقاء والزوال ؟

لقد استولى عليَّ حال غامض رهيب لا ينفك عني أبداً ، كنت أفكر في مرة فيما عساه حاصل بعد هذا الفقد الذي لا يعوض . وهذا أرى في الهوة السحيقة التي حلت وهل يبقى من فراغها الخيف شيء له وجود . ان النفس لا تؤمن في الفراغ ولا تأنس فيه وجوداً لانه عدم ، ولكني لم أيأس ولا يعتريني ملل وما زلت أفكر في هذا الفراغ الذي تكتنف أمره من العدم

وكنت كثيراً ما أقوم في يم مظلم يضرب بعضه بعضاً تحت النور . هكذا كانت روحي . فوجدت به فجيعة الموت في يم مظلم وحدت تتحسس النور لتجد المخرج السليم . ويلتفت في فضاء يرى كيف يجد اليأس يدنو من ! ولكني لبثت على هذا الحال طويلا بين اللوعة والأسى والتفكير والأمل حتى بدت في أفق هذه الظلمة وهدأت ثورة العاصفة شعاعات فيها شعوراً جديداً — وأخذ النور الذي كان موصداً لابواب الرحمة يحث في الأمل ويبعث في نفسي معنى العزاء والسلوى ، وأيقنت عند اشراق هذا النور بعد أن لمست في الحياة كسيحة ، تحتاج جمالاً لها ، ولكن ما زال النور يشمل الى فكرة تتعجب وروحي حتى تولى الحق سبحانه — وبملابسات جوانحي ، بمرة والريح لهذا الورق الخفي . لقد كنت لا أفكر [illegible] الفكر في كل شيء في [illegible] وشعرت بمعنى طبيعة يقترب من [illegible] وأنا [illegible] وأنا [illegible] الأمل وبعد هذه اليأس عميقة دون أن يذهب مستقر :

أنت بدأت يا طي عظيم هداك
في وحدة خلق عظيم بين ثم ، جميل أنيم .
هو نفوت يبدع حياة من حياة

لقد بكيت حين ألقيت تلقي تحيتي وديعة بين يدي الزمن — ولكني عند ما وجدت هذه النفس وديعة مستردها يداك في يوم ما ألقيتها درة غالية أكرم من ان تهمل بين الاشياء

***

يارب ! إني أسمع نداءك ، جاءني عبر البحر المحمول بحمله رسولك الامين
إن الموت جاء بإني ، والليل داج وقلبي خائف وأنين .
ولكني مستقبله بجبيني وقلبي ، وأفتح له الباب على مصراعيه مرحباً به مقبلا الارض بين يديه
إن رسولك يأتي أحيانا ، في خشوع ودمع فاض من عيني
أحييه وأنا أقدم له كنوزي (١) وقلبي عند قدميه
انه سيعود اليك بعد ان أدى رسالته وأنجز أمره تاركاً طيفاً غائماً فوق حياتي
انه لم يبق في بيتي للوحش أحداً غيري ليقدم لك القربان يارب !

***

لابد من يوم وان طال الزمن تحييني فيه الشمس وهي غاربة تحية الوداع الاخير
ويسترف الرعاة هادئين الالحان وهم جلوس تحت أشجار الميدان وتطفو نوى وترد الطير القريب منها تحتمي أبي بركبي في الظلام
إني أصغي لك يا نفسي ، علي أعرف قبل الرحيل ، لماذا تحبوني هذه الارض لتعتدي بين ذراعيها ! ولماذا يسري الي منها الليل بحديث النجوم ولماذا تبث الارض ضوء النهار منبلا أشعة وفي فتستحيل الى زهرات.
قبل لي ان أثرت قليلا قبل رحيلي لاتم لتشيدي الاخير نغمه وموسيقاه . وهل تخشى ان نور فأرى وجهك . وهل تزهر ان يسكت فأنظم لك منه نشيداً لجبينك ؟

***

« في اليوم الذي يطرق فيه الموت بابك . ماذا أنت باذل له ؟
سأقدم بين يدي ضيفي رداء حياتي قائماً دعاة ، وفي أدعه يمضي صفر اليدين .
سأهبه اعمى فتخاف النور ، أخر المطريف وفي له الديف وأعله ما كذبت وما خنت في الدنيا
سأهب كل هذا بين يدي ضيفي في آخر أيامي حين يطرق الموت بابي . . .

***

فمعرفة تاجور بحقيقة الموت . انما هي معرفة من كابده وقاساه . ثم معرفة من عالجه بالتفكير والفلسفة . واحساس تاجور بالموت يعادل احساسه بالحياة وجمال الوجود والتفكير فيه . وأنت عند ما تقرأ أشعاره تراه يبتهج بذكر الموت ، ويرحب به كما يبتهج ويرحب بالحياة . لانه يعلم ان الموت هو ثمرة الحياة الاخيرة التي تشتهيها النفوس العارفة بحقيقة الوجود والكائنات

نبيك يا موت يا آخر ثمرة في الحياة ، فعجل بمجيء إليك .
إني أرقب مجيئك دائماً ، وفي سبيلك أهتف بغنائي في أفراح الحياة وأتراحها
إني أحب الحياة وأعلم أن الموت هو الآخر الذي يتم في ذاته وأعلم ... هذه مرسومة من عندك ... أن دعتني بيت ... لا أدع حتى تكون آخر بيت عندك
لقد نبهت الغرام من خيالي من داره ، ثم عرفت وهم كذلك حولها الارض ... يديه إلا كليل ... أمر ... في وسطني وحبه ... في هذه من أجلي

(١) زوجه وأولاده يوم فجع فيهم

وكتب تاجور فصلاً رائعاً كان ألقاه على تلاميذه محاضرة بالبنغالية في معهده عنوانه « مسألة الشر » جاء فيه عن فلسفة الموت :

يهولنا ان نعلم الثقل الذي يصيب اليومة الواحدة من جسمنا من ضغط الهواء ويهولنا أكثر ان نعلم الثقل الذي ينال الجسم جميعاً ، ولكن الكل تقل ما يقابله من مقاومة. ولهذا حقت علينا أثقالنا . والتنازع على البقاء تكافؤ وتقابل تأتي اليها النفس البشرية في محنة الاثقال وعطب الاعضاء. وفيما يصدر عن الحب من ممانعة وبخل وتضحية — فهذه كلها تختلف اسماء الحياة بل هي تناوعها وتقابلها . ولو أنا عكفنا بأنفسنا باحثين عن حقيقة الموت لبانت لنا الدنيا متغيرة ، ولكن اطمأن بنا الرأي على ان الموت في هذه الحياة أضعف من ان يخذ الطريق على تفكيرنا ، وليس هذا يرجع الى ان الموت حدث قليل الوقوع نادر الصدوف ، ولكن يرجع هذا الى ان الموت هو الوجه المبطل للحياة على وجه هذه الارض . ومثل الموت مثل كثل تريد العين بين نحض جنبيها فيهولها هم فيذهب الحركة من العين تحدث تلقائية في كل لحظة ومع هذا لا تشعر إلا بالعين مبصرة دائماً ومع ذلك لا تكاد تحس لها حدثاً . فعلينا في جلتها لا تقيم الموت وزناً . في نضحك ونرقص ونلعب ونغني ونتسر ونحب في مواجهة الفناء .

على ان الموت يقوم علينا ويصدمنا حقا عندما نحل كارثة الموت بفقد فرد منا . عندئذ نرى سواد الحياة حداً ونعدي سلب وقد يختلط علينا الامر فيتعذر النظر منا عن ادراك الحياة وعن فهم الموت كجزء من الحياة كلها . ويكون شأننا في هذه الكارثة كشأن من ينظر الى قطعة مجزأة من نسيج من وراء ستر مكر فيحسبها شبكة مثلثة فيهولك الامر ويخطئنا التدبر والحساب. ولكن الحق هو غير ما نرى ، هو ان الموت ليس بالمثابة المظلمة التي تراها عيوننا لاول وهلة فهو قد يظهر لنا اسود اللون كما تبدو لنا السماء زرقاء ولكن ليس لسواده صبغة حقيقية كما ان زرقة السماء ليست إلا وهماً ولوناً خادعاً فلا تترك لونها في أجنحة الطير »

ولهذا يتهج تاجور للموت كما يتهج للحياة ويرى فيه سبيلاً للمعرفة ومسرة أبدية

[خامساً] الفلسفة الهندية . ولعلّ الفلسفة الهندية هي أعمق المصادر في شعر تاجور أثراً . بل انها حقاً مدار جهده الأدبي ومثار تفكيره وهدف نظره الى الحياة بل هي رسالته التي بُعث لها فكان عظيماً في اخلاصه وفيّاً في ادائها . ولقد بسط فلسفة الهند في محاضرات ألقاها على تلاميذه ثم نشرها في كتابه الجليل المسمى سدهانا او (استكانة نفس) وانهُ ليقرر في فصله الاول الذي شاء ان يجعل عنوانه «علاقة الفرد بالمجموع» كيف نشأت المدنية الهندية وكيف بعثت الفلسفة بين أهل الهند . فيقول : ان المدنية الهندية لم تنشأ نشأتها الأول كما نشأت المدنية الاغريقية بين الجدر وأسوار المدن ، ولكنها نشأت في الغابة المسيحة . ولهذا أحيطت فلسفة الهند بروح الطبيعة الشامل ومأفق من النظر غير المحدود. ونشأ العقل الهندي حراً طليقاً غير مقيد بما تقيد به العقل الغربي الذي نشأ في مدنية محصورة مقيدة بالرغبة في ان يمد الفرد نفوذه ويمتلكاته ويعددها ببناء الاسوار واقامة الامبراطوريات. فلم تكن رغبة العقل الشرقي في امتلاك والحيازة المادية ولكن كانت حق ما توحيه فلسفته وعقائده مجبولة في فهم الاشياء وادراك حقيقتها ، وتوسيع نفوذ ضميره عليها ، فأن ينمو هذا الضمير نمواً منسجماً باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط بالانسان . وشعر الرجل الهندي الذي نشأ في مدنية الغابة

غير المحدود، بأن الحق هو ادراك شامل للكائنات وان التفرد المطلق لا يشبهه شيء في الوجود ، وان السبيل الوحيد للوصول الى الحق انما يكون ببثّ نفوسنا واشاعتها في الاشياء التي حولنا لندرك كنهها ، ولقد كان ادراك هذا الانسجام بين الفرد والجماعة وبين الفرد والطبيعة او بين الفرد والعالم الذي حولهُ ، كان هذا الانسجام بين روح الفرد وروح العالم هو الجهد الذي بذلتهُ الفلسفة الهندية القديمة منذ سكن حكماء الهند الغابات

واتسع قلب الهند الكبير لمعاني السامية التي توحيها الطبيعة، فأنشأ الانسجام والتفاهم بينه وبين ما حوله ، فلم يشأ ان يقهر الطبيعة كما فعل الرجل الغربي ، بل شاء ان يتعاون معها وان يتقي هذه الخصومة الدائمة التي أعلنتها مدنية الغرب على مظاهر الطبيعة للوصول الى استغلالها من طريق قهرها واذلالها — وشاء وحي الهند ان يضمّن فلسفته قلب الانسان وقلب العالم في معنى مثالي واحد . وان ينظر اليها كحقيقة واحدة كبرى فلا فرق بين الانسان والطبيعة فهو جزء منها وهي كلٌ متضمن إياه . ونشأت فلسفة الهند من هذه الحقيقة التي تعتد بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة او بين الفرد والعالم وما فيهِ من بشر وحيوان وجماد ، وأحست هذه الفلسفة بأن الانسان قد لا يلتئم بما حوله من كائنات ما لم توجد بينهما الالفة والمروة الوثيق للتعارف والتفاهم وانهُ لهذا يجب ان يكون حبيباً مقرباً لما حوله لا عدوّاً يبغي القهر والنفوذ والسلطان، فهو لا يبسط نفوذه على الطبيعة قهراً واستغلالاً ولكنهُ يتوصل اليها لا من طريق العلوم الطبيعية بل من طريق ادراك كنهها ومعرفة أسرارها معرفة تبعث في نفسه مسرة دائمة باتصاله بها اتصالاً مرتبطاً بالمعرفة وكشف الحقائق الملاحقة التي تدرك بها الغرض الاسمى من وجودنا . ويقول تاجور في هذا :

« عندما ندرك صلة قرابتنا من العوالم التي حولنا نشعر بأننا قد تحررنا من القيد واعتقنا من الرق ، فادراك الحقائق الروحية للكائنات التي حولنا تظهر على عظمة حياة الكائنات ، ونشعر بأننا نعمل ونتحرك بحبور وانشراح »

ولم تنكر فلسفة الهند فوائد الفروق بين الطبائع والمواهب وإلاّ تقلت الحياة واختل ميزانها وأصبح التهوض بها مستحيلاً . كما لم تغفل هذه الفلسفة ميل الانسان الى حب السيطرة بل اعترفت له بهِ ، ولكن في ضوء التي يجعل بالانسان ان يسيطر عليها في الوحدة ، وقررت ان العظمة والسيطرة ليست في الملك والحيازة وبسط السلطان والاستعمار ، وانما العظمة والسيطرة تقوم في قوة الاتحاد بالعالم من طريق فهم حقيقة الكائنات وادراك روحها ادراكاً تامّاً

هذه الفلسفة هي فلسفة الهند بل هي فلسفة الشرق جمعه : تخلص لها تاجور اخلاصاً أكيداً فكان عضواً في اشاعتها في أدبهِ وآثارهِ وأشعارهِ وأغانيهِ وكان عضواً مخلصاً لوطنهِ وفيّاً

لذكراه ، لانهُ استطاع أن يصور وطنه في أدبه وان يذيع فضله على المدنية والثقافة البشرية وان يصور الهند للعالم تصويراً روحيًّا لانهُ يعتقد « ان لكل قطر حدوداً معنوية باطنية كما له حدود مادية ظاهرة وفي الحدود المعنوية يحكم الروح ويهيمن ، وليس للقوة المادية ان تقهر او تبطش او تستولي على جزء ضئيل ما من هذه المملكة المعنوية الروحية »

هذا الرأي أعلنهُ يوم وقف الى جانب غاندي ليقول للانكليز انكم لن تستطيعوا ان تحكموا روح الهند بأساليب القهر والاستعمار : وقد كان عظيماً اذ صور للعالم عظمة جنسه من فكر وفلسفة وعقائد ، ومع انهُ يقدس وطنه على انهُ إيمان وعقيدة ، يجد في العالم وطنه البشري الذي يقسم لدعوته الى الخير والسلام والمحبة

فالحب والخير والوحدة الروحية وادراك ما في الحقيقة من جمال كل هذا هو مبعث الالهام والوحي لشعر تاجور ، وليس أبلغ من تاجور نفسه عندما يبسط رأيه في الوحدة الروحية فيقول :

« اني أصغي في ضمير . فأرى الحياة واطمئن الى ما في الحقيقة من ايتلاف منظوم لا يتبدل . أصبح ادراكنا لحب الخير جامعاً وعالمياً . واتمم طابع الجمال في حياتنا بتمم الخير والمحبة الجامعة ، وتوجيه ضميرنا نحو الملاقي شطر اللانهائية التي لا تنضب منها المدى الدائمة . هذا هو غاية الحياة وسبيلها دائماً ، هو اتحاد الروحي في الصدق كما ان الصدق هو الجمال ، وان تقسم الحياة وتدرك في الحب ، لان الحب هو نصب الحياة ومبعث وجودها وأكبر معنى فيها وأقوى دليل على بقائها . فيجب ان تحرر قوى وان تمنح هذا العنق الدائم الذي يبعث فيه الصورة لكي تنمو لاسرار الكائنات فندرك دخائلها العميقة فيشملنا حينئذ وسعها ضميرنا فتتفوق مناهج براهين ادراك غاية الجمال . » (١)

يقدر تاجور منشأ عن ايمان الفرد بوجوب ارتباطه بالمجموع ، من اتصال روحي للحب الخير والفضيلة ، ومن انكار للذات واعراض عن الانانية وتضحية نفسية لا تبخل بالتضحية الفردية في سبيل الجماعة — فادراك نفسية المجموعة البشرية تمهيداً للانسجام فيما يتطلب من الفرد ادراكاً واسعاً وشعوراً دائماً بشعور الجماعة ، وهو يرى أن الانسان عندما يتصل بالجماعة اتصالاً روحياً يكون حقاً قد قدر نفسه وجعلها في مرتبة اسمى من مرتبة الحيوان الذي لا تتسع امنيته الا في تفكير في حياته الخاصة وحياة جسده وحده . ولقد بسط تاجور هذا في انساني في ناحية من محاضرة[٢] له اشار فيها الى معنى الخير في الحياة والى ما يتوفر عند ذلك الفرد الذي يسمو بطبعه الى الاتصال بالمجموع فشعر بشعور تكون كوحدة عامة . ونحن نقتطف من هذه المحاضرة : التي تلخص رأيه في « الوحدة الروحية »

(١) من محاضرة تحت عنوان « [illegible] » وهي فصل من كتاب سيصدر .

(٢) الفصل مقتبس من كتاب سيصدر

« تنشأ حاسة الخير في حياتنا من نأمينها التي تظهر الحق وترتبط بحياة المجموع ؛ هذه التأمينة هي الوجه الخير الذي يجلو حياتنا ، هذا الوجه لا يحصر عنايته على ما يحيط بنا من مناظر فقط بل إن عنايته لكل ما هو خارج عن حاضره ، وربما شملت حياة لم يقدر لها وجود بعد . والانسان الحكيم يشعر بهذه الحياة الأخرى التي تنتظره والتي قد توجد بعد ، بل إنه ليحس بها أكثر من إحساسه بالحياة التي بين يديه . لذلك كان عليه أن يلبي نداء هذه الحياة فيضحي بحياته في سبيل مستقبل مجهول الأوضاع ، وهو بهذه التضحية يصبح عظيما لأنه أدرك الحق تمام الادراك . على المرء أن يدرك هذه الحقيقة مهما تبلغ به الأنانية ، وعليه أن يعلم بوحدة عواطفه بأن يكون خير الحق ، لأن قوى الروحية هي التي تصرف بين الحياة ليست شيئاً مجهولاً مدته اشتات الخرق ، أو أنها وجدت جزافاً دون هدف لها . وما من بالأمر الخير الذي به إلى الوجود إلا قصد أو غرض فالحياة حقيقة متصلة غير منقوصة موقوفة على الاتصال بما ليس في حدوده ، فهي روح مستمراً موصولاً مع الزمن وتمكن الانسان من ادراك حقيقة أخرى ، وهي أنه لن يكون متحرراً لنفسه إذا ما تكلف على نفسه وقاس في حدودها فقط . وأن الفرد ليس ملكاً لنفسه وأنه هو حق لآخرين ، يشعر في شعوره وأن يتم في حياته أن يعرفهم . وكما أن للانسان شعوراً بروحه الشخصية التي لا يحدها وعيه الحاضر كذلك له شعور بروحه الجامعة الكبرى التي تقع خارج شخصيته . وما من خير إلا ويشكل هذا الشعور بقدر . ومن يخالف بعد هذا الانسان الذي يضحي بشيء من رضائه الجماعة في سبيل شخص آخر ، وقيد في الدنيا من يستحق التضحية ولو مرة واحدة بشرة المرة التي تبعث أن الناس عند البذل والتضحية من أجل احتمال خسارة أو دفع مكروه عن مخلوق آخر . وأنه ما بقي أن الانسان ليس بمخلوق منفصل عن البشرية وأنه هو موصول بها . وعندما يدرك الانسان هذه الحقيقة يصبح عظيماً حقاً . ولا مناص للنفوس الشريرة من أن تأتي الشر وترتكب الجريمة من أن تؤمن بهذه الحقيقة أيضاً ، فليس ثمة جريمة عند الفرد إلا تعد الجريمة داخلة على الجماعة . والجماعة معنى فسيح من يحيا من الناس لفكرة أو لوطن أو لغير الأبناء . وأن الأدب ليتضمن بقدر ما يسع هذا المعنى النبيل في حياة البشر ، وأنك لكي تعيش عيشة الرضى والخير يجب أن تحب الناس جميعاً يوم انشأ يؤدا السبل التي بها أنبيء استشر عند هذه الحقيقة : عندما يعمل الانسان على شيء مبتغاه بدماج ذاته في البشرية العامة وبناء فرده في الجماعة يكون قد تحرر من عقلة الأنا والنفس والأنانية

إن شخصيتك جديرة على البحث عن الخير الجامع الذي للمجتمع منه نوعها ، وأنه من تفي لو تعرف نفسه على مادتها وتفقد عيوب حاسة الابصار إذا قدرت لها على أن تبصر في نفسها دون تطلع إلى ما خارج عنها »

وتاجور فيلسوف بالوراثة ، فهو من سلالة فلاسفة وأسرته من الأسر العريقة في العلم والمكانة والمعرفة والفنون . نبغ فيها زعماء في الدين والفلسفة والشعر والتصوير ، فوالده شاعر ديني فيلسوف له رأي وفكر في قيم الاشياء ، وأخوه الأكبر جوجندرانات من أشهر المصورين ، وأخوه دويجاندرانات فيلسوف متصوف كبير . كان له بالحديقة منزل يفكر فيه ويتأمل أسرار الكون حتى لتهفو عليه الطيور وتهبط مؤنسة كأنها في صحبته وسكونه قطعة من الغابة ...

هذه البيئة الروحية هي التي أعانت تاجور على أعباء مواهبه الفلسفية وقد بسط فلسفته في محاضرة ألقاها فيها :

[illegible]

بالذي يحيط به وهذه الفتاة التي تحبه . لكن غريزة تدفعه مع ذلك ليكسر القشرة ، هذه كسرها خرج منها الى الحياة . كذلك ترجمه في النفس الانسانية غريزة تدفعها الى الخروج من هذا الضيق المحبوسة فيه احتجبت الفرح في فترته الوصول من عقد الحياة الى طور حقيقته الانسانية التي تدفع اليه بغريزته . هذه الحقيقة هي موضع إيمان المحمود ، وهي فلسفتهم التي يتغنى بها أفراد الشعب

« انت الذي أريده . أنت وحدك .
لقد ذكرتك دائماً في أغنى لا تنسى .
أي إلهي أي زعيم السماء
اني لم أجلس تحت نظرك إلا تحكون
حياتي شيئاً سهلا منسجماً أشبه بالوتر المتين
الذي تملأه الحياة أغاناً وموسيقى »

« أني أرى يا أيها الذاتي القصة التي لا تعرف الخجل ولكنها تخجل من القول بما بك
إلهي لا تخبئ شيئاً من يديك . ومن له ان يمد دقائقك . تكر الايام وتمر الليالي وتتفتح الاعوام عن تبديل كالازهار ، وتعرف أنت كيف تنتظر »

[سادساً] — المسرة والبهجة: وتاجور ليس بالشاعر الفيلسوف المتشائم ولكنه أبداً مبتهج بحس عظمة الكون وقدرة الخالق في هذا البهجة وهذه المسرة التي تملأ قلبه عندما يستقبل الحياة في اطمئنان ورضا . وله في هذا فلسفة ترجع الى الفلسفة الهندية القديمة التي شرحتها تعاليم بوذا نيشاد حيث تقول : «إن الكائنات جميعاً انما خلقتها ابتهاج الله ومسروره الذي لا يحد ولا ينفى » فكرة خلق الكائنات انما هي ايثار لها ومسرة من الله بوجودها : ولهذا كان فهمنا حقائق الاشياء لا يمكن ان يكون الا من سبيل الخير والتفاؤل والمسرة

وتاجور له بعد هذا النظر الوديع في العالم، قلب الطفل البريء الذي يدرك الحقائق بالفطرة والبداهة . وقلما نجد شاعراً له هذا القلب الكبير الذي يجمع العالم وهو مع ذلك قلب طفل بريء لا يدمر غير الخير والمحبة والبهجة والمسرة

وليست مسرته نتيجة الاقبال على الحياة والاستمتاع بفوائدها الحسية خوفاً من اقتراب الاجل والحرمان . فأناشيده الصوفية الممتلئة بالبهجة والمسرة ليست كأناشيد عمر الخيام الذي يدعوك ان تقبل على الحياة سهلاً قبل مداهمة الأجل ، وليست بمسرة شاكة مفوتة بالشك في الحياة الاخرى ، وانما أناشيد تاجور تدعوك الى شرح روحي ومسرة المفهمة التي خبرها في دخيلتنا من طريق الايمان بأن الاشياء التي نحبها والتي تصادفنا في الحياة انما هي كائنات منسقة أوجدتها ارادة جامعة موحدة تلهمنا شعورها بالمحبة والمسرة من وجود هذه الكائنات . وانه اذا يمكنك ان تستقبل الحياة مبتهجاً بها واثقاً بها وخيرها وشرها انما يمكنك ان تراها حقيقة الحياة من طريق التفاؤل والرضا والايمان بخلودها وليس بالشك فيها والتخوف منها كأنها حدث مصيره الى الفناء والزوال

أيها القلب المذنب : ملك تذكر خواطرك وتبعث دموعك في شعاب الزمن الماضي
قم واطرب واشج فالايام آتية
والساعة تدعى أيها المرتجى عن عهد الصبا
لقد آن لك ان تتركها ولكن الى لقاء وجه سرمد أخرى
تلك سفراط هذه المرة سفرة غير عجلة فاشيح يا قلب المذنب !

على ان لتاجور في هذا النظر الفلسفي في الحياة سهمٌ المصلح الاجتماعي الذي يعمل على اسعاد الفرد والامة واسعاد البشرية بأن يخلق حالة عقلية يصبح بها المرء سعيداً مبتهجاً، والا فالجماعة البشرية صائرة الى الانقراض والاضمحلال، نتيجة التشاؤم وعدم الايمان بالقوى الروحية المهيمنة عليها. فمن المحال ان تدرك النفس البشرية سعادتها من الاشياء الخارجة عنها ما لم تفهم كنهها على انها أثرٌ لقدرة مدبرة خالقة. واذن فلا سعادة ولا ضمان اجتماعي الا بالايمان بقدرة الله والاقبال عليها في رضا وسرح ومسرة روحية تنشىء الفرد شعوراً بالسعادة

ويأبى تاجور العنف في كل شيء ويعتبر الاسراف في التشريعات الاجتماعية والمعاهدات الدولية عملاً عنيفاً لن يأتي بشيء ما بل هو دليل على الضعف واصرار على نية الغدر وعدم الثقة بطبائع الخير التي في النفس البشرية وهو قبل هذا علاج وهمي يزيد في امراضنا الاجتماعية والروحية

ويريد تاجور ان يستغل ما في طبيعة النفس البشرية من ميول الى الخير والتضامن الانساني والوحدة الروحية لاجتناب ما تسعى اليه التشريعات والمعاهدات من الالتزام والتطبير

فطريقه الى الاصلاح الاجتماعي هو طريقه الى الاصلاح الروحي فلن يكون الافراد سعداء مجربات موفورة في نفوسهم، يشعرون بها في الحب وادراك الخير وتحقق وتطهير نفوسهم مما علق بها من طبائع الاستبداد والانانية، ولن يكونوا سعداء في معرفة النفس وفي السمو بها عن مباوي الاثرة التي تجر البشرية الى ويلات الحروب، ولن تدرك الانسانية هذا السمو الا اذا أدرك الانسان نفسه وارتبط بها وبما يحيط به من كائنات مختلفة

هذا التفسير الروحي هو مُسهمٌ المصلح الاجتماعي الذي يؤمن بان الاصلاح للفرد والجماعة لا يأتي من طريق الارغام والتشريع والحكومة وانما يأتي من طريق تنمية الخير وتنمية الشعور الاجتماعية في النفس البشرية. ومن طريق تهذيب العادات واستغلال ما في الخير والشر في الانسان، وسبيل ذلك هو ان يعرف الانسان نفسه وان يشعر المرء بانه كائن يدركها من طريق الحب وسعة الروحة

أليست هذه المعاني السامية عن أحب معاني الديمقراطية التي يشهدها الانسان دائماً، ليحيا حياة سامية كريمة؟

هذه هي مصادر شعر تاجور وهي مثار الهامه ووحيه